عمارةالأسواقوالحوانيت في مكة المكرمة

في عصر الدولتين السعودية الأولى والثانية

1233-1157هـ/1744-1818م، 1240-1309هـ/1824-1891م

إعداد

أ.د/ مجدى عبد الجواد علوان عثمان

أستاذ الآثار والعمارة الإسلامية
وكيل كلية الآداب – جامعة أسيوط

فَضَّلَ الله سبحانه وتعالى بقاع الأرض بعضها على بعض، وارتبط هذا التفضيل بخصوصية بعض الأمكنة والمدن، وكان من بين هذه المدن مكة المكرمة التي خصها الله سبحانه وتعالى بالبركة، والتقديس، والإجلال، والتفضيل.

وتعد مدينة مكة المكرمة من أفضل المدن والبقاع قاطبة؛ فقد خصَّها الله سبحانه وتعالى عن سائر بقاع الأرض بأن جعلها إطارًا مكانيًّا لبيته الحرام أول بيت وُضِعَ للناس، وذكر ذلك

في القرآن الكريم في قوله عز وجل: "إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ".

كما جعلها الله عز وجل إطارًا زمانيًّا تتجه صوبه قلوب وأفئدة المسلمين كل عام لارتباطه بفريضة الحج.

وقد توفرت في مكة المكرمة عبر العصور الإسلامية الشروط الواجب توافرها في عمارة المدن، والتي حددها فقهاء تخطيطالمدنوالمجتمعاتالعمرانية ،ومن بين هذه الشروط : تقدير الأسواق بحسبكفايتهالينالسكانهاحوائجهمعنقرب .

وعبر العصور اتسمت مكة المكرمة بوجود علاقة طردية وطيدة بين الاتساع العمراني وكل من النشاط التجاري، والنمط الإنتاجي بصفة خاصة، وعلاقة ذلك بمراكز الاستقرار بمدن الحجاز ككل؛ حيث تأثرت مكة بمدينة الطائف ذات الطابعين الإنتاجيين: الزراعي والصناعي،كما تأثرت أيضًا بالمدينة المنورة ذات الإنتاج المتعدد، مما أتاح لمكة المكرمة الريادة التجارية، وكان من أهم مظاهر بناء هذا الكيان التجاري كثرة الأسواق متنوعة السلع،وتوزيعها في أحياء المدينة، وتمركزها حول منطقة الحرم المكي الشريف، وأيضًا على امتداد الطرق المؤدية إلية و أنحاء مكة المختلفة (شكل 1، 2).

وقد ساعدت عدة عوامل على تقلد مكة هذه الزعامة التجارية ، والتي يمكن حصرها في النقاط التالية:

1-وقوع مكة المكرمة على مفرق طرق الحج والقوافل العربية، بين مراكز تجارية كبرى بالخليج، والعراق، والحبشة، واليمن، وبلاد الشام.

2-تحولها إلى محطة مرور، واستقرار مكاني مؤقت على غرار المحطات التي يتوفر فيها الماء، حيث تتعرج الطرق عادة باتجاء العيون وآبار المياه.

3- تجانس التركيب السكاني، وتقارب المنفعة بين القبائل الحجازية بمكة، مما انعكس على ارتقاء المصالح الخدمية والمرافق العامة.

4- تحول مكة المكرمة إلى مركز خدمي ونفعي؛ حيث نشأت بها أسواق داخلية متنوعة السلع، وأصبحت مركز جذب تجاري أدى إلى تكوين المؤسسات التجارية المنظمة .

وقد تأثر تطور الأسواق ونشاطها التجاري في عمران مكة المكرمة عبر العصور بعدة عوامل هي:1-الموقع الجغرافي حول المسجد الحرام، باعتباره المركز الرئيسي بالمدينة.

2-طوبغرافية المكان والطرق المؤدية إليها.

3-النشاط الإداري ورعاية الحكومات المتواترة على المدينة .

وكانت الأسواق في مكة مقسمة إلى عدة أقسام في أحياء مختلفة ، ينظمها التجار، وأصحاب الحرف والسلع، ويشرف عليهم مؤسسة نقابية لها رئيس يعرف بشيخ الطائفة، ويمكن تمييز ثلاثة عناصر رئيسة في البنية والنسيج الحضري لمكة المكرمة، وهي كما يلي:

1- المسجد الحرامالذي مَثَّلَ -وما يزال -نواة مكة المكرمة وبؤرتها المركزية و العمرانية، وإليه اتجهت كافة شوارع المدينة الرئيسية .

2- السوق والمنطقة المركزية بمكة المكرمة، حيث يلتقي فيها الحرفيون والتجار، ومنها يستمد السكان والحجاج كافة احتياجاتهم المعيشية.

3- الكتلة السكنية المحيطة بالسوق: والتي تتصل بالشوارع الرئيسية بالمدينة، وتتكون من المباني السكنية، أو البيوت متعددة الطوابق، والمطلة على حارات وشوارع، وفي هذه المنطقة تتواجد مؤسسات الدولة ومراكزها والإدارية .

ومن أهم هذه الأسواق: سوق الحزورة، وسوق الكثيب، وسوق الأبطح، وسوق المسعى، وسوق سويقة، وسوق الشامية في شمال الحرم، وهو أشبه بالأسواق التركية، وله سقف خشبي، وتباع فيه السبح، والأقمشة الهندية، والتركية، والأحجار الكريمة على أنواعها المختلفة، وأيضًا السوق الصغير تجاه باب إبراهيم بالمسجد الحرام، وتباع فيه جميع أصناف الغذاء، كالخبز، واللحوم،والبقول الجافة، والخضر، التي تستجلب من الأودية المحيطة بمكة المكرمة كوادي فاطمة شمالًا، ووادي الليمون شرقًا، ووادي العبيدية أو العبادية والحسينية جنوبًا، كما يأتي إليها كثير من الخضروات من الطائف، وكذلك سوق الليل شرق المسجد الحرام، وهي سوق مزدحمة تباع فيها كل احتياجات الحجاج .

أما عن الحوانيت التي تمثل أحد أنماط النشاط التجاري فقد انتشرت بالقرب من شارع المروة والشوارع المحيطة بالحرم، كشارع سويقة الذي يعد من أكثر الشوارع نظافة، وكان به عشرون حانوتًا، تباع فيها العطور والزيوت ، وقد سقف جزء منها بسقف حجري مقبى، تدعمه دعامات حجرية، وهي من بناء محمد باشا دمشق، ويكثر بها التجار من حلب، ودمشق، ونابلس، وبغداد، ولبنان، ويمثل هذا السوق سوق الطبقة الغنية.

إلى جانب ذلك وجد شارع المسعى الذي تكثر به الحوانيت التجارية، وهو الشارع الأكثر استقامة وازدحامًا بالناس، وبه منازل متقنة البناء.

والحوانيت في سائر مكة عبارة عن حواصل مقببة في الطابق الأرضي من المنازل، بنيت أمامها مصطبة حجرية، يجلس عليها التجار تحت رفرف خشبي، أو ظلة من الحصير، تستند على أعمدة خشبية طويلة.

وكانت تباع بهذه الحوانيت سلع ومواد مختلفة من كافة البلدان، منها سيوف يمنية ومحلية متقة الصنع، وساعات أوروبية عالية النوعية، ومصاحف للقرآن الكريم، وملابس باختلاف أنواعها، وعطور وتوابل، وكان غالب التجار من الهنود.

(شكل1) خريطة موزع عليها موقع بعض الأسواق بمكة سنة 1298هـ/1880م

عن : أشواق مليباري– الأسواق في مدينة مكة

(شكل2) مواقع الأسواق الداخلية والمناطق التجارية بالمسجد الحرام سنة 1298هـ/1880م

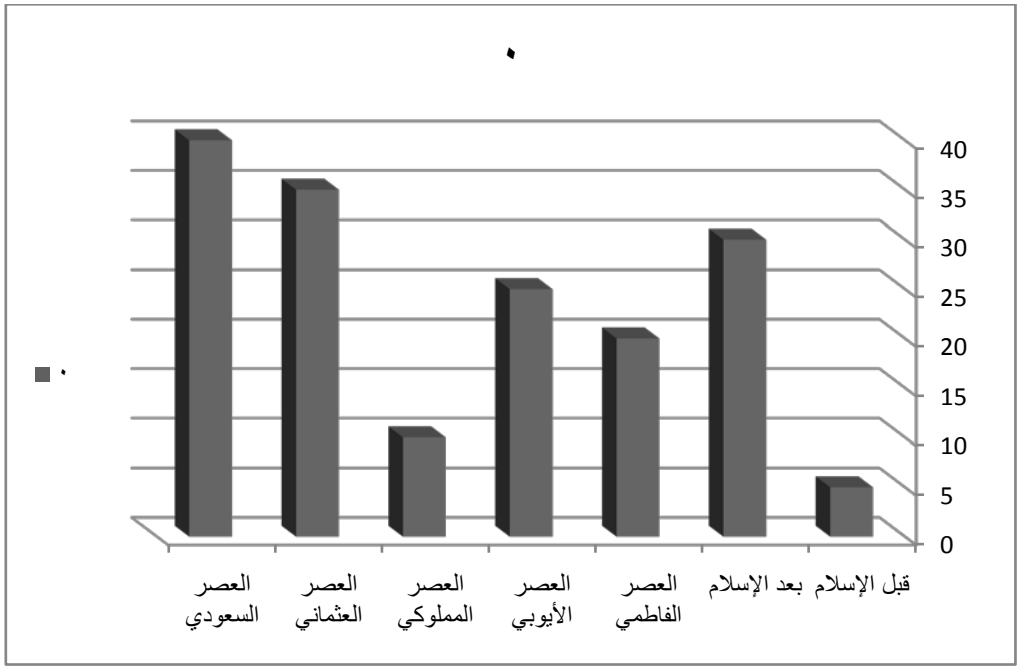

(شكل 3) علاقة بيانية تبين تطور الأسواق بمكة المكرمة حتى العصر السعودي